مجلة الإحياء، المجلد: 24، العدد: 34، جانفي 2024، ص - ص: 129-148
الترقيم الدولي: 1112-4350 الترقيم الدولي الإلكتروني: 2588-2406

التغيير في فكر الشيخ محمد الغزالي
The Evolution in the Thought of Sheikh Mohammed Al-Ghazali."

راضية بوراس
Radia BOURAS
كلية العلوم الإسلامية ـ جامعة يوسف بن خدة الجزائر
r.bouras@univ-alger.dz

تاريخ الإرسال: 2023/05/25 تاريخ القبول: 2024/01/21

الملخص:
يعيش المسلم اليوم حالة من الركود والجمود اللذان صنفاه في دول العالم الثالث، وعند البحث في أسباب هذا التخلف نجد أن رضوخ المسلم واستكانته وتقبله للجيد والسيء أحد أبرز الأسباب التي جعلت منه مثالا للهزيمة والتراجع، وما علم أن بداية صحوته تكون بدراسة نفسه وتغييرها نحو الأفضل، والسعي الدؤوب في إصلاحها، هذا الأمر الذي كان محور اهتمام المفكر والداعية الإسلامي الفاضل محمد الغزالي في الكثير من مؤلفاته، ذلك أنه اشتغل بسؤال الحضارة والتقدم ودرس أسباب التخلف والانحطاط، فكان من أوليات طرحه مبدأ التغيير الذي يعتبر الحافز والنقطة الأولى في الانطلاقة، لأن السنن الكونية التي شرعها الله، أنه لا تغيير لقوم حتى يغيروا أنفسهم، والتغيير يعرف على أنه المحاولات الإيجابية المستمرة التي تغير الفرد أو الجماعة نحو الأفضل في جميع المجلات وعلى كافة المستويات التي تتطلب ذلك، والشيخ الغزالي طالب بالتغيير والسعي إليه بكافة المجهودات والأساليب والوسائل المتاحة ضمن دائرة الوحي الإلهي. منطلقا بذلك بجملة من التساؤلات العديدة حول الوضع الراهن للأمة ومستقبلها وأسباب الرجعية التي تعيشها وسؤال الحضارة المنشودة التي تؤملها، منبها دوما إلى أن السبب الرئيسي لحالها هو تخليها عن دينها واستبداله بأفكار الغير ومعتقداته والتي لا تلتقي معه لا في الأهداف ولا في المناهج.
الكلمات المفتاحية: محمد الغزالي؛ التغيير؛ الدواعي والمنطلقات؛ العقيدة والأخلاق؛ الإصلاح.

Abstract:
The Muslim today lives in a state of stagnation and stagnation that classified him in the third world countries, and when researching the causes of this backwardness, we find that the Muslim's acquiescence, resignation and acceptance of good and bad is one of the most prominent reasons that made him an example of defeat and decline, and what he knew that the beginning of his awakening is to study himself and change it for the better, and the relentless pursuit of reforming it, which was the focus of attention of the virtuous Islamic thinker and preacher Muhammad Al-Ghazali in many of his books, because he worked with the question of civilization and progress and studied The reasons for backwardness and decadence, one of the priorities of his proposal was the principle of change, which is the incentive and the first point in the launch, because the cosmic norms prescribed by God, that there is no change for people until they change themselves, and change is defined as continuous positive attempts that change the individual or group for the better in all magazines and at all levels that require it, and Sheikh Al-Ghazali demanded change and sought it with all efforts, methods and means available within the circle of divine revelation. Starting with a number of many questions about the current situation of the nation and its future, the reasons for the reactionary situation it is living in, and the question of the desired civilization that it hopes, always warning that the main

reason for its situation is its abandonment of its religion and its replacement with the ideas and beliefs of others, which do not meet with him either in goals or curricula.

Key words: Muhammad Al-Ghazali; Change; reasons and starting points; faith and morals; fix.

مقدمة:

إن تقدم الأمم وتحضرها وسقوطها وتخلفها يعتمد بدرجة الأولى على أحد أهم المعايير التي تكون حافزا لها. هذا المعيار أثبت مصداقيته على مر العصور والدهور وكان سببا في تحول الكثير من المجتمعات وانقلابها من السيء إلى الأحسن، كما أنه صنع من العاجزين رجالا غيروا مجرى التاريخ بمجرد أنهم اقتنعوا وتأكدوا وآمنوا بأنه لا سبيل للإصلاح والنهوض إلى بالانطلاق بهذه الحقيقة. فضلا عن ذلك فقد ذكره القرآن وأكد عليه، وأقر هذه الحقيقة في قوله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ (الرعد: 11)، نعم إنه التغيير فلا يمكن لأي أمة أو شخص أو مؤسسة أو جماعة أن يحقق الأفضل، إلا إذا انتهجت هذا السبيل وغيرت من نفسها وصححت أخطاءها وعرفت عيوبها وكانت على بصيرة بذاتها، ليتسنى لها تغيير كل ذلك نحو الأحسن والأفضل. والأمة الإسلامية بأشد الحاجة لهذا المعيار واتخاذه طريق نحو صلاحها وتقدمها، ذلك أنه اعتراها كوكبة من المساوئ التي جعلتها في آخر السلم الحضاري. وقد كانت هناك محاولات عديدة لمفكريها وعلمائها الأجلاء في طرح هذا المعيار وشرحه والتأكيد على أهميته، بوصفه علاجا لمعظم المشاكل التي تواجهنا في زمننا المعاصر، أحد أبرز هؤلاء المفكرين في هذا المجال والذي ضرب بقوة فيه، الشيخ الفاضل محمد الغزالي الذي اعتنى بهذا الفكر وقدم لنا منظومة متناسقة نافعة تؤتي أكلها إن طبقت على الوجه الصحيح، فما المقصود بالتغيير؟، وماهي دواعيه ومنطلقاته واستراتيجياته في فكر الشيخ الغزالي؟ ولماذا كان التغيير أول مرحلة لصناعة النهضة وتقدم الأمم؟

وللإجابة على هاته الأسئلة اتبعنا المنهج التحليلي والوصفي في عرض القضايا والأفكار وشرحها والاستدلال عليها، كذلك المنهج النقدي بتقييم هاته الأفكار والنتائج التي أسفرت عنها وحققتها. ويعتبر هذا الموضوع ذا أهمية بالغة نظرا لأنه أولى خطوات الإصلاح والتقدم، ويعتني بسؤال النهضة المنشودة للفكر الإسلامي، خاصة وأن الشيخ الغزالي نحت هذا الموضوع بعناية وأولى له أهمية كبرى مؤكدا على ضرورته في السير في طريق الأمم المتحضرة. ويهدف هذا البحث إلى معرفة مفهوم التغيير ودواعيه واستراتيجياته في فكر الشيخ الغزالي، ومعرفة أساسياته والنهج الصحيح لتطبيقه، والخروج بمنهج سليم وعميق لتحقيقه على أرض الواقع والخروج بنتائج إيجابية في سبيل تحول الحال المهين الذي نعيشه.

أولا: نبذة عن الشيخ محمد الغزالي

هو أحد علماء العصر الحديث وأحد أهم المفكرين في العالم الإسلامي ورائد الدعوة الحديثة بلا منازع، ولد شيخنا في محافظة البحيرة في يوم الثاني و العشرين من شهر سبتمبر من العام 1917 م، وقد نشأ الإمام في أسرة متدينة ولهذا فقد أتم حفظ القرآن الكريم وهو في سن العاشرة فقط من عمره ، انتقل الإمام الغزالي ليكمل تعليمه في القاهرة و كان ذلك عام 1937م، حيث كان محمد الغزالي طالبا في كلية أصول الدين بجامعة الأزهر، حيث حصل على الشهادة العالية بعد أربع سنوات وهي تعادل الليسانس، ثم التحق بكلية اللغة العربية وحصل منها على العالمية مع إجازة التدريس في الدعوة والإرشاد وهذه الشهادة تعادل الماجستير[1].

وقد تأثر الشيخ تأثرا كبيرا بأحد الجماعات الإسلامية في وقتها، جماعة الإخوان المسلمين، وتعرف على مؤسسها الشيخ حسن البنا في إحدى مواعظه في المسجد، ومضى معه إلى مجلس يضم رجال الدعوة

والكفاح الإسلامي، وظل معه حتى استشهد 1368هـ-1949م[2]. ويتحدث عنه الشيخ القرضاوي في فترة شبابه قائلا: " عرفت شيخنا الإمام الغزالي _ غزالي هذا العصر_ أول ما عرفته قارئا له في أواسط الأربعينيات، وأنا في أواخر المرحلة الابتدائية، وأوائل المرحلة الثانوية، طالبا بمعهد طنطا الديني الأزهري، بعد أن ارتبطت بدعوة الإخوان المسلمين، كبرى الحركات الإسلامية الحديثة... وكان الغزالي أحد كتاب الدعوة البارزين، يكتب في مجلة الإخوان المسلمين الأسبوعية، في باب ثابت تحت عنوان: "خواطر حرة" وكان يشدني إليه فكره الثائر وبيانه الساحر، وأسلوبه الساخر فقد كنت أرى فيه إلى جواز كونه داعية أديبا من الطراز الأول... وكان الغزالي يحمل روح الرافعي وتألقه وسهولة المنفلوطي وتدفقه، وتأمل العقاد وتعمقه ..."[3]. لقد كان الشيخ الغزالي أحد الأعمدة الكبار في الدين والدعوة والفكر والأدب ويشهد له الكثير بذلك، ومما يدل أيضا على موسوعيته الكبيرة المكتبة التي خلفها في كثير من مجالات العلم فهي تتعدى مئتا كتابا ورسالة وهذه بعض مؤلفاته:

عقيدة المسلم، الحق المر، المحاور الخمسة للقرآن الكريم، الإسلام والمناهج الاشتراكية، سر تأخر العرب والمسلمين، فقه السيرة، التعصب والتسامح بين الإسلام والمسيحية، قضايا المرأة...

توفي شيخنا رحمه الله 9 مارس 1996م، بالمملكة العربية السعودية أثناء مشاركته في مؤتمر حول الإسلام وتحديات العصر[4].

ثانيا- التغيير: المفهوم، الدواعي، المنطلقات، المستويات

تحدثت الكثير من الأقلام عن مفهومية التغيير وأهميته، وتنوعت الآراء حوله وتباينت، ولكنها جميعا تتفق أنه بداية محاولات إيجابية هادفة تستمر نحو الأفضل.

والتغيير لغة كما جاء في لسان العرب: تغير الشيء عن حاله: تحول وغيره، حوله وبدله كأنه جعله غير ما كان، وفي التنزيل العزيز ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ ۙ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (الأنفال: 53)، قال ثعلب: حتي يبدلوا ما أمرهم الله[5].

فالتغيير إحدى الأمور التي كلفنا بها والمطالبين بتنفيذها للتطلع نحو العيش الكريم، وفي وقتنا المعاصر أصبح التغيير مفهوما لابد من تطبيقه على جميع التخصصات التي تهم الفرد الذي يسعى دوما لمستقبل زاهر ينسى فيه أخطاء الماضي ويحولها إلى إبداع وتجديد لحاضره، وهذا التغيير كما أشرنا ينطبق على جميع المجالات، ويقترن بكثير من التوجهات التي تبين الهدف منه، فمثلا نجد التغيير السياسي وهو تغيير يخص الجانب السياسي، والذي يسعى فيه إلى تغيير الأنظمة الحاكمة أو دستور البلد أو أحزاب وجماعات أو أشخاص وغير ذلك بما يتعلق بالأمور السياسية، أيضا نجد التغيير الاجتماعي الذي يعتني بتغيير المجتمع والتحول الذي يطرأ عليه في كل ما يتعلق به في القيم والعادات والتقاليد... قس على ذلك ممارسة التغيير في جميع المجالات والأمور التي نبحث فيها. وعليه أصبح التغيير مفهوما لابد منه من أجل عصرنا الراهن.

وعند البحث عن مفهومية التغيير في الفكر الفلسفي القديم نجده مرتبط بالحركة وبالأمور الطبيعية أكثر ووصفا للعملية الديناميكية للحياة، فالتغيير في مفهوم هذه الفلسفة الزمان الموجود الأزلي، والذي هو عبارة عن التغير المستمر للموجودات، كما نجد أن أفلاطون قد تحدث عنه من خلال عالميه: عالم المثل والعالم الذي نعيش فيه وهو المتغير والذي يستمد طاقته من عالم المثل الثابت الذي يتصف بكل الصفات الكمالية والمثالية أي أنه نقيض التغيير الذي هو عالمنا المعاش[6]، فنلاحظ أن هذه الفلسفة قد اقتصرت على الجانب المادي في تفسيرها للتغيير، أما الفلسفة الحديثة فإننا نجدها قد اعتنت عناية بالغة بهذا المفهوم وتوسعت في شرحه مبينتا أهميته ودوره الكبير في تحسين الأوضاع والتطور الذي يحتاجه الإنسان لبلوغ

سعادته المنشودة، فالتغيير هو مهمة الفيلسوف أي تغيير التاريخ لا مجرد فهمه وتأسيس نظريات تفسره، فالعالم اليوم بحاجة إلى فلسفة التغيير التي تنقله من أوضاع أفضل تمكنه للتقدم نحو المستقبل.

إن الذي يستدعي التغيير على جميع المستويات والتوجهات يكون بداية بجملة التساؤلات التي يطرحها الفرد في نفسه وواقعه. فكثير منا دائما ما يكون في حيرة من أمره، يتساءل عن وضعه المتخلف الذي يعيش فيه؟ لما أنا هكذا؟ لما وصلت لمرحلة الانحطاط هذه؟ ما هو السبب الذي جعلني أتراجع إلى الخلف؟ وغيرها من الأسئلة التي تبين اختلال أوضاعنا وتدنيها ووصولنا إلى مراحل متخلفة في كل مناحي الحياة.

والشيخ الغزالي نجده في كتاباته دائما ما يثير هذه التساؤلات ويبني أسئلة الحضارة عليها، والتي تخلف عنها المسلمون وأصبحوا من أضعف الأمم أخلاقا وثقافة واقتصاد وسياسة وعلاقات اجتماعية، يقول في وصف وضعهم: "إن الأمة الإسلامية تعاني صدوعا هائلة، وهي الآن موزعة على أكثر من سبعين قومية، أو سبعين جنسية سياسية بلغة هيئة الأمم ولغة جوازات الصفر على السواء، والإسلام سواء كان عقيدة أو شريعة عملة ليست لها رصيد، وأتباعه ينال منهم ولا ينالون ويجار عليهم ولا يجيرون، وذئاب الشرق والغرب تغير عليهم فتفترس ما شاءت من القطعان السائبة دون أن يتمعر وجه"[7]. إن هذا الوصف لخير أمة أخرجت للناس لهو الخيبة والذل بحالهما، فكيف لأمة كانت تقود الأمم وتصدر فكرها وثقافتها، ومثالا في قوة اقتصادها وعزة في اتحادها، ويهاب الغير قواها الحربية والعسكرية أن تصبح بهذا الوضع المزري؟، إنها أمة تخلت عن العهد والميثاق الذي كان عليه أولها، أضاعت هويتها واستكانت لهوية غيرها، استبدلت الذي هو أدنى بالذي هو خير، ونهجت سبيلا غير سبيلها ورضخت نفسها للضعف والهوان وأبت أن تغيرها، فأصابها ما أصابها من نكبات الدهر. إذن لابد لها من تدارك نفسها والسعي إلى تغييرها ليصلح الله أحوالها.

إن هذا الدافع للتغيير هو الذي كان محورا لفكر الشيخ وملهما لسعيه في بناء أمته فهو كثيرا ما يطرح تساؤلات عن وضعنا المزري كقوله: "... وعندما أتعمق هذه المرحلة من التاريخ الإسلامي وأتساءل عما أصابنا أجد الجواب العدل، لقد كنا للهزيمة أهلا، وما كان يمكن أن يقع إلا ما وقع بعد الخيانات العقلية والخلقية التي لقت حياتنا في الإعصار القديم"[8]. ويقول أيضا: "إن أمتنا الآن جزء كبير من عالمنا النامي... تخلفها الحضاري لا ريب فيه ومظاهر التقدم المجلوبة من هنا ومن هنا عارية قد تسترد. إنها ليست إفرازا لكيان خاص، ولا أثرا لنشاطها الأصيل. ما الذي أوصلنا إلى هذا الدرك؟ إن التقدم والتأخر ليس حظوظا عمياء، إن ما نزل بها هو نتائج لمقدمات طال عليها الأمد... وعلل هددت قوانا جيلا بعد جيل..."[9]. ويؤيد هذه الفكرة في جميع كتاباته أيضا بقوله: "وقد لوحظ أن المسلمين لما ضعف إيمانهم وجفت ينابيع التقوى في أفئدتهم، أضاعوا دولتهم القائمة علية قيم بينة، وأضاعوا في الوقت نفسه عناصر حياتهم العاجلة، وفقدوا الإحساس بالجمال والقبح، وأصاب ملكاتهم الأدبية ضمور شائن، فانحط الشعر والنثر، وقل الأدباء المصورون كما قل المؤلفون والمفكرون"[10]. فهذه إحدى دوافع التغيير التي فصل فيها الشيخ في كثير من كتاباته وأشار إليها، إنها حال الأمة المريض وشقاؤها الذي لم يتنه إلا بإيمانها بالتغيير والتحول الحاسم وفق ما شرعه الله لعباده. هذا التغيير الذي ينطلق من طبيعة الإنسان كونه يحمل في طيات نفسه بوادر واستعدادات التحول الإيجابي الذي يطمح إليه " ففي الإنسان غرائز دنيا تشده إلى تحت، وفيه خصائص كريمة تدفعه إلى فوق، فإذا كانت هذه الخصائص أشد قوة ذهبت بالإنسان صعدا إلى آفاق الحق والخير والجمال... وإن كانت مساوية لغريمتها ذهب السالب في الموجب وبقي المرء موضعه... وإن كانت أضعف منها أخلد إلى الأرض واتبع هواه، فلم تره إلا مبطلا شريرا دميم الروح"[11]. فالنفس الإنسانية بطبيعتها تسعى إلى تطوير

نفسها وعلو شأنها وهذا لا يتسنى لها إلا بدافع محفز دافع يغيرها من جذورها، هذا الدافع الذي ينبعث من صميم النفس الإنسانية في إيمانها العميق بصدق الرسالة السماوية التي بين يديها وصفاء فطرتها التي صدقت بها ووفقتها. وكان هذا السر الكبير في تميزها بين الأمم، يقول الغزالي: "كان السلف أسلم الناس فطرة، وأصفاهم طبيعة، كان الله تبارك أسمى غايتهم فيما يفعلون ويتركون، وكان الرسول قدوتهم المحببة، وكان هواهم تبعا لما جاء به صلى الله عليه وسلم. وكان انقياد الأمم لهم يتم بعد التعرف عليهم، والتفرس في سيرتهم، والواقع أن هذا هو السر الأول في انتصار الإسلام واستقراره في الأرض"[12]. لذلك كان السر الحقيقي في التغيير هو التجرد التام من هوى الأنفس وانقيادها نحو ما شرعه الله تعالى دون جدال أو تخير لأنه وبلا أدنى شك، هذا الشرع فيه صلاحهم الديني والدنيوي وكذلك الجزاء الأخروي.

ولهذا التغيير مستويات لابد من التدرج فيه من أجل تحقيق الغاية منه، وأولها يكون على مستوى الفرد الذي يجب عليه الإيمان اليقيني بضرورته وتغيير نفسه أولا والإصرار الدائم على المضي في هذا الطريق، فصلاحه يعتمد على وجوب أن " يكون صاحي الذهن فيما يباشر من أعمال، إذ أنه محاسب على مثقال ذرة من الخير والشر، وإصلاح العمل حتي يبلغ به درجة الإتقان، شارة الإيمان الحق، وسور القرآن وآياته ووعده ووعيده وإنذاره وتبشيره، تتزاحم كلها على الإنسان لتدفع به في طريق الإحسان ولتجنبه طريق الزلل"[13]، فالشيخ يؤكد على أهمية بدء الإنسان بنفسه ويصلحها متخذا القرآن دستورا له في مشواره ليصل إلى مبتغاه. أما المستوى الثاني فيخص الجماعة أو المجتمع أي المستوى الاجتماعي الذي لابد له من طرق تفكير واحدة ومنهج واحد بين المعالم يعتمد عليه في إزاحة شوائب الظلمة والعتمة والتفكير الرجعي، وأن يتحد ويكون يد واحدة في مواجهة كل الأخطار التي تحوم حوله، يقول الشيخ الغزالي في سبب ضعفنا: "وإنني أعتقد أن سر هزائمنا لا تأتي من قوة العدو بقد ما تأتي من فوضى وضعف وتشتت أمتنا الإسلامية، إن المستقبل مليء بالمفاجآت وأعداؤنا يستكثرون علينا حق الحياة، ولابد من توحيد صفوفنا في عالم التكتلات حتى تتوقف جراحنا التي تنزف طوال القرن الماضي ولازالت حتى اليوم"[14]. وتتبنى هذه الجماعة فكرة التغيير وتطالب به في جميع الميادين التي طالتها أيادي الفساد، يقول أيضا: "إن الخاصة الأولى للأمة الخاتمة أنها غيورة على الحقيقة، لا تطيق تشويهها ولا إغفالها ومن ثم فهي لا تسكت عن أمر بمعروف أو النهي عن المنكر فإذا بليت هذه الأمة بسلطات تكمم الأفواه، وتدع العامة والخاصة لا يعرفون معروفا ولا ينكرون منكرا فهل هي بذلك الصمت الجبان تبلغ رسالة الله؟ أم تقطع الطريق إليها"[15]. ويكون المستوى الثالث خاضعا للأرض أو البيئية كما وصفها الشيخ، فلا تغيير حقيقي ولا إنشاد للإصلاح إلا بالسيطرة على البيئة والتحكم فيها وقيادتها بما يخدم الصالح العام، ذلك أن ديننا الحنيف شرائعه متجهة نحو الفرد والمجتمع والأرض على حد سواء، "وكان كتابه مفعما بالتعاليم التي تتناول العلاقات الخاصة والعامة، وتوجه المرء في البيت والطريق وفي الحرفة التي يكتسب منها، وكان تبيانا لكل شيء... وشرائع الإسلام للأحوال الشخصية والتجارية والاجتماعية والاقتصادية والسياسية تتضافر كلها على إيجاد بيئة صالحة، لها رسالة نبيلة يدور أعضائها وتلتحم أجزائها في نظام رتيب يشبه مملكة النحل في خلاياها"[16]. فالاهتمام بهذه المستويات الثلاثة في التغيير هو الأمر المطلوب في قضايا الإصلاح، فلا نهضة ولا تغيير إلا بتعاون جهود الفرد والجماعة، والاعتناء بالأرض واستصلاحها على النحو المطلوب في عملية صناعة الحضارة.

هذا التغيير المنشود لا يتم على دفعة واحدة، بل هو جهود مراحل مختلفة ونتيجة لخطوات عديدة تمر بها الأمة، فالمجتمع الجاهلي لم يتغير دفعة واحدة بمجرد نزول الوحي، بل كان ذلك بتصفية النفوس وإخلائها من كل المعتقدات الباطلة لتحل محلها العقيدة الصافية وهذا ما يسمى بعملية التحلية والتخلية، كذلك كانت

تدرجات عديدة في الأحكام فلم ينزل التحريم دفعة واحدة بل كان ببيان خطر ومضار هاته الأمور المحرمة ثم كان تحريمها، كذلك الأمة اليوم فهي عادت لجاهليتها الأولى التي جعلتها من أوهن الأمم. فالتغيير هنا لابد أن يكون بمحطات لابد أن تمر بها، بداية بالنفس إلى المجتمع إلى البيئة، فهو اليوم يحتاج إلى نفوس تسلم أمرها لخالقها تسعى لنشر الإسلام بالخلق والعبادة والعلم والقدوة الحسنة، نفوس كنفوس أصحاب محمد عليه الصلاة والسلام، "ذلك أنهم أسلموا لله وجوههم وتعروا من زخارف الحياة ومآرب الدنيا، وتأثروا بخطوات نبيهم وهو يعطي ولا يأخذ، ويحي ولا يميت، وينشد الآخرة ويستعلي على العاجلة، وهذا النوع من الدعاة هو الذي يغير وجه العالم..."[17]. كذلك المجتمع لا بد أن يكون يدا واحدة تسعى إلى بدايات التغيير وأن تتبناه بخطى ثابتة ومعالم واضحة ومناهج علمية توصله إلى مقاومة الفساد ودفعه، يقول الشيخ الغزالي: " والمجتمع الصحيح كالجسم الصحيح، يشد كيانه جهاز دقيق ويضبط أموره نظام محكم، وتتعاون ملكاته العليا وقواه المنفذة تعاونا وثيقا يسير به في أداء رسالته كما تسير الساعة في حساب الزمن"[18]. وعليه فإن أردنا التغيير لابد أن يكون عن حكمة وروية في جميع المجالات، فالساحة مليئة بالعتمة، والنور قد انقشع وعودته يكون بفجوج متلاحقة حتى يكتمل ويسطع على أرض الحق، كالشمس التي تسطع فجرا بخيط أبيض وأسود، حتى نرى ذلك الخط وقد انتشر في أنحاء المعمورة. ومن هذا المنطلق بنى الشيخ فكره حول التغيير بوصفه فعلا يأتي بعد تراكمات جمة وتعاقبات عدة، بوصفه منهاجا يكون بعد خطوات عديدة وأمور سديدة، يقول الشيخ في ذلك: "إن التغيير الحاسم لا يتم ارتجالا؟ ولا يتم بين عشية وضحاها؟ ويجب أن يتجرد له رجال لا يخافون في الله لومة لائم؟ ولا تخلع قلوبهم رهبة أو رغبة؟ يمشون في الطريق الطويل الذي سار فيه الأنبياء؟ ولا يفكرون في انقلابات عسكرية أو ثورات مسلحة؟ إنما يفكرون في الإصلاح المتأني؟"[19]. لذلك كان التدرج في الأحكام منهجا ربانيا وحكمة إلهية، لها أثرها الطيب على النفس والجماعة، فلابد من اتباعه في سبيل تحقيق الغايات المنشودة.

ثالثا- التغيير: الحرية، سؤال الهوية، الأخلاق، العقيدة

هذا التغيير الذي يقصده الغزالي لابد له من حرية في الفكر والدين، فالسعي له لا يكون بالإجبار والاستبداد، ولا بالقوة والرهبة، فالمجتمع المسلم فطن في سلوكه من أجل التغيير، فديننا الحنيف قد أقر بالحرية وترك للناس حريتهم في اختيار دينهم وترك لهم المتسع في ممارسة شعائرهم، والشيخ يقر هذه الحقيقة ويؤكدها في تعميق فكرته عن الحرية في الإسلام فيقول: "أقرّ الإسلام الحرية الدينية بأبهى صورها وأرحب معانيها، ولم تتعدَّ وظيفة النبي مع الناس [في هذا المجال] إلا كونه هو الهادي البشير والداعية الحكيم؛ فهو يشرح ويبيِّن ويجسِّد الإسلام في شخصه صلى الله عليه وسلم، وكان خطاب القرآن له كل حين وآخر يذكِّره بتلك الوظيفة وهذه المهمة، وأنه لا يجوز له أن يُكره أحدًا على الدين: في قوله تبارك وتعالى: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ﴾ (ق: 45)، وقوله: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ (21) لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ (22)﴾ (الغاشية: 21-22)، وفى قوله: ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ﴾ (الشورى: 15)، وفى قوله: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ (النحل: 125)، وفى قوله: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (التوبة: 129).... فالحرية الدينية متأصلة في ديننا وهي من أفضل خصائصه، فالتغيير يكون بالحكمة والموعظة الحسنة، وفي ظل الحريات التي هي "الجو الوحيد لميلاد الدين ونمائه وازدهاره"[20].

إن البيئة التي ترتوي بالحريات الفردية والحريات الجماعية والحريات الدينية والفكرية، هي البيئة التي تجعل من الحضارة الإنسانية في أعلى رتبها وأبهى صورها، كما أن الاستبداد والظلم وكبت الحريات

وتقييدها يؤدي بها إلى حضارة معتمة وعصور مظلمة، وهي بلا شك أرض للفساد والكساد والتخلف وطريق للاضمحلال والتشتت يقول الشيخ: "إنَّ البيئات التي تستمتع بمقادير كبيرة من الحرية، هي التي تنضج فيها الملكات، وتنمو المواهب العظيمة، وهي السناد الإنساني الممتدُّ لكلِّ رسالة جليلة وحضارة نافعة"[21]. وهذه الحرية لن نجدها مكفولة كما في الإسلام. إن التاريخ يشهد بعظمته في إعطائه الحرية لكل الأفراد في معتقداتهم وأفكارهم وممارسة شعائرهم وهذه الميزة كانت من أسباب انتشاره وتقبل الناس له، لا كما يقال أنه انتشر بحد السيف وسفك الدماء، يقول الشيخ الغزالي في هذا الصدد: "إن الحرية الدينية التي كَفَلَها الإسلام لم يشهد التاريخ لها نظيرًا، ولم يحدث أن انفرد دين بحكم الأرض، ثم نشر خيره وأمانه على مخالفيه، وأعطاهم حق حرية الاعتقاد وكل أسباب البقاء والازدهار مثلما فعل الإسلام..."[22]. فالإسلام يمنح معتنقيه كل الحرية والاستقرار وكافة الحقوق والمزايا. في حين أن أعداؤه إذا سادوا أهانوا وظلموا، وتجبروا وطغوا وكانوا جلادين يذيقوننا سوء العذاب.

هذا التغيير أيضا يحتاج إلى فرد متمسك بهويته وأمة تعتز بها وأرض تحيا عليها، والهوية هي أحد أهم المبادئ وأولها في طريق التغيير، ويعرفها الجرجاني بقوله أنها: "الحقيقة المطلقة المشتملة على الحقائق اشتمال النواة على الشجرة في الغيب المطلق"[23]، أي أن الهوية هي حقيقة الفرد وجوهره الذي لا يتغير "فإن هوية الشيء هي ثوابته التي تتجدد ولا تتغير تتجلى وتفصح عن ذاتها دون أن تخلي مكانها لنقيضها، طالما بقيت الذات على قيد الحياة... إنها كالبصمة بالنسبة للإنسان يتميز بها عن غيره، وتتجدد فاعليتها، ويتجلى وجهها كلما أزيلت من فوقها طوارئ الطمس والحجب دون أن تخلي مكانها ومكانتها لغيرها من البصمات"[24]، أي أنها الذات المميزة عن غيرها بها تعرف بثوابت ومبادئ معينة تبقى على عهدها ما بقيت أبدى الحياة.

ولتحقيق التغيير لابد ألا يلمس هذا التغيير هذه الهوية لأنه منطلقها الذي يبدأ منها. فالتغيير يكون في فهمها الحقيقي لهذه الهوية، التي هي أولا وأخيرا هوية الدين الحنيف دين الإسلام لأنه هو: "الصبغة الإلهية الثابتة هو الرباط الأوحد الأعظم بين المسلمين في المشارق والمغارب وأخوة الإسلام عاطفة شريفة جعلها رب العالمين أساسا لوحدة كاملة وأمة متماسكة"[25]. وعليه فإن الأمة لن تنهض ولن تصعد سلم الرقي ما لم تفهم هذه النقطة وتجعلها شعارا لها، لأنها النقطة الأولى التي بدأ بها المجتمع الإسلامي الأول أول خطواته، وكانت الشعلة الأولى التي أنارت طريقه تحت راية التوحيد الخالدة، وكانت في أروع صورها لما تآخى المهاجرون والأنصار في مشهد بهي لم يحكي عنه التاريخ إلا في أمة الإسلام العظيمة، وإن أول لحظات الانهيار هو تقسمها وتشتتها إلى أحزاب وجماعات وقوميات ما أنزل الله بها من سلطان، وهي ملاذ أعدائها للقضاء عليها يقول الشيخ: " هذه الوحدة كانت بلا ريب أساس بقاء الأمة، وكانت سلاحا حادا يمنع أعدائها من أن يفتكوا بها، أو أن ينالوا نيلا جسيما منها، فلما أراد أعداء الإسلام أن يمزقوا هذه الأمة، وأن يجهزوا على دينها، قرروا أن يقسموها إلى دويلات شتى، وإلى شعوب مختلفة"[26].

لقد أصبحت الأمة الإسلامية ضحية تسميات عديدة فرقتها عن دينها الجامع لها، فأصبح المسلم اليوم يشعر بأخوة ووحدة أخيه في الوطن أو القومية أو غيرها من الانتماءات، أكثر من أخوة أخيه المسلم الذي يحمل عقيدته ودينه، وهذا هو المقصد والهدف الخبيث للذين في قلوبهم مرض تجاه الإسلام "فالمهم أن الرباط الأوحد وهو الإسلام يتمزق أن الصبغة الثابتة يبهت لونها وتخف صبغتها، أن عاطفة الأخوة الإسلامية تؤخر وتتقدم عليه نزعات أخرى وعواطف أخرى"[27]. إذن لابد من معالجة هذا الانحراف الخطير الذي يؤدي إلى التهلكة والعودة إلى رابطة واحدة رابطة التوحيد وعقيدة الإيمان لكي نلمس التغيير الحقيقي

في نهضتنا، فمسألة الهوية هي التي تضمن هذه الرابطة إن طبقت على حقيقتها وجوهرها. إنها الانتماء والمحافظة على الدين وخصوصياته في كل تفاصيل الحياة من دين وعقيدة وشريعة دون أي شك أو تزوير وتحوير لهذه الحقائق التي تجمع الأمة على كلمة واحدة، يقول الشيخ الغزالي: "المسلمون بهذه الوحدة، أو بهذه الأخوة أمة واحدة تتكافأ دمائهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم، رباط التوحيد عقيدة الإيمان بالله الواحد هي المحور الذي يتلاقى عليه المسلمون وان اختلفت أجناسهم من عرب إلى ترك إلى زنوج إلى هنود إلى بيض إلى دم أو لون أو عرق مما يتصور في الطبيعة البشرية"[28].

فالوحدة الدينية المؤسسة للهوية الإسلامية هي من أهم الانطلاقات التي تحافظ عليها الأمة في سبيل بناء نفسها وتغييرها لما هو أفضل لها. أضف أن هذه الانطلاقة لابد أن تزينها رسمة الوجود الأخلاقي المميز لهذه الأمة، فلا نهضة ولا تقدم إلا بأخلاق عالية تضمن لها الاستمرار والبقاء خاصة وهي الآن في عالم جعل من المادة تطغى على كل الجوانب، وكثيرا ما يؤكد الشيخ الغزالي على هذه النقطة المحورية في تعظيمه للأخلاق ووجوب التحلي بها للسير في طريق البناء يقول في ذلك: "إن قضية الأخلاق وما عراها من وهن أمر جلل، إنك لا تستطيع بناء قصر شاهق دون دعائم وأعمدة وشبكات من حديد ، ولا تستطيع بناء إنسان كبير دون أخلاق مكينة ومسالك مأمونة... إن ضمانات الخلق الصلب في سيرة هذا البطل هي التي تعلو بها الأمم، وتنتصر الرسالات، وهي التي يستخذى أمامها العدو وتنهار الطواغيت، وعندما ترى مجتمعا صارما في مراعاة النظام، دقيقا في احترام الوقت، صريحا في مواجهة الخطأ، شديد الإحساس بحق الآخرين، غيورا على كرامة الأمة كثيرا عند الفزع، قليلا عند الطمع مؤثرا إرضاء الله على إرضاء الناس، عندما ترى هذه الخلال تلتقي في مجتمع ما، نثق أنه يأخذ طريقه صعدا إلى القمة"[29]، ولا ريب في ذلك فإن الجانب الأخلاقي هو روح الأمة وهويتها، فبهذا السلاح انتصرت على الباطل وهدمت أساطين الشرك والجحود وكسرت شوكة الدول العظمى، وكانت مثالا رائعا يحتذى به بين أقرانها من الأمم، "و قد كان المسلمون الأوائل نماذج أخلاقية تجسد فيها الشرف والصدق والطهر والتجرد، ولذلك تصدروا القافلة البشرية عن جدارة، ولا غرو كانوا صنع الإنسان الذي وصفه الله بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ (القلم: 4)، وكانوا نضح روحه العالي فمشت وراءهم الشعوب تتعلم وتتأسى"[30].

ويستفيض الغزالي في نقطة الأخلاق مبينا دورها الكبير في إحياء النفوس والشعوب والدول، متأسفا على الحال التي آلت إليها بلادنا الإسلامية من تردي في الجانب الخلقي، والذي كان سببا في انهيارها وسيطرة الأعداء وتفوقهم عليهم. مشيرا إلى أن ضعفنا وانهزمنا مرده إلى تتبع أهوائنا وسيطرة قلوبنا المريضة علينا. يقول في سبب قيام الكيان الصهيوني: " إن هذه أعظم فرصة لقيام دولة إسرائيل، لقد قامت في الفراغ المتخلف من ضياع الأخلاق لدينا، وتحول المسلمين إلى أمم مقطعة خربة الأفئدة مخلدة إلى الأرض جياشة الأهواء، باردة الأنفاس..."[31]. لقد أصبحت حياة هذه الأمة على المحك، خيوطها واهنة كوهن بيت العنكبوت، كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار، لأنها عملت بأسباب فنائها بأن أهملت روحها وهويتها الأخلاقية التي طالما رفعت رأسها بين الأمم، وانتشرت مظاهر الخبث والمكر فيها وهذا قد أدى إلى " انحلال الأفراد والجماعات على نحو لم تعرفه بلاد أخرى، وتبجحت الخيانة وفجر الأقوياء، ولصق الضعاف بالحضيض، وصار طلب الخبز النداء الأول وارتضى الكثيرون أن يفوزوا بالغنيمة بالإياب..."[32].

فكثيرا ما يؤكد الشيخ أن لا عودة لهذه الأمة إلا بعودتها إلى هويتها الأخلاقية وأن لا حياة بها إلا بالرجوع إلا تعاليم القرآن الأخلاقية والاقتداء بالسنة النبوية، "ولكي يعود سلطان الأخلاق إلى عرشه يجب

أن يعود اليقين إلى الأفئدة، وأن تألف الجماهير الصلاة، وأن تنتصر الفضائل على الشهوات وألا يحترم كذوب أو يتقدم مفرط"[33].

كما يشير الغزالي إلا أن الأخلاق هي لغة الأمم وهي المعيار التي يتحاكم بها الشعوب لأنها موافقة للفطر الإنسانية السليمة يقول في ذلك: "والأخلاق لغة عالمية تتفاهم بها الشعوب على اختلافها، وتتحاكم إلى منطقها، وربما اختلفت تقاليد وأحكام، لكن الأخلاق تظل مرتكزة إلى ما أودع الله في الفطر من تحسين وتقبيح..."[34].

هذه الأخلاق لا بد لها من سلطان تحتمي تحت سلطانه يوجهها ويرشدها لكي يكون النفع نفعين أجر في الدنيا وأجر في الآخرة، إن هذا السلطان هو سلطان العقيدة السلطان القوي المتين الذي بصلاحه تصلح كل أمور المسلمين، فلا تغيير ولا إبداع ولا نجاة إلا بهذه العقيدة الحقة يقول تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمالَهُمْ﴾ (محمد: 1)، إن الكفر ذل في الدنيا والآخرة، ولا حياة هانئة لمن خالف عقيدة التوحيد وآثر الشرك، ينعم قليلا ويبتأس كثيرا. إن العالم اليوم يواجه مشاكل كثيرة كان الإلحاد والطغيان من ورائها، وهذا الحال أيضا كان لأمة الإسلام نصيب منها لا لشيء إلا لأنها جرت وراء الأفكار الهدامة والمسميات الحداثية والإغراءات الكلامية التي زينها لها أعداؤها، فأصبحوا اليوم يلهثون وراء هؤلاء من أجل مسايرة عيشهم واللحاق بهم، المساكين ما علموا ولا أدركوا أن العزة لله ورسوله، وما علموا أن كل هذه التيارات والمذاهب الهدامة أنها كمثل ريح أصابت حرث قوم فأهلكته، وشيخنا كثيرا ما يشير إلى هذه النقطة ويبين أن المعركة القائمة بيننا وبين أعدائنا هي معركة عقيدة ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ (البقرة: 120)، وأن الضرب الحقيقي يكون في روح هذه الأمة بتشويه عقيدتها والتلاعب بها واستبدالها بعقائد أخرى تفيض بالشرك والإلحاد يقول الشيخ في مقدمة كتابه الاستعمار أحقاد وأطماع: "ومن القصور أن تحسب أهداف الاستعمار الصليبي منتهية عند بث الرذائل في المجتمع، ونشر التفكك في شتى نواحيه، كلا إن الأمر لديه أكبر من ذلك... إن المقصود هدم رسالة محمد من الألف إلى الياء، وخلق نفر من الكتاب يؤلفون الرسائل ويدبجون المقالات، وملء نفوسهم أن محمدا هذا رجل دعي، وأن قرآنه كتاب بشري، وأن التعلق به رجعية بالية، وأن الخروج عليه طريق التقدم والارتقاء"[35].

إن الحرب الحقيقية التي دارت وتدور اليوم هي حرب دينية حاقدة على الإسلام وأهله، حرب على عقيدة التوحيد والسعي لفنائها ليعم الإلحاد والشرك بقاع الأرض، هذا هو الهدف الحقيقي للأعداء وإن كان تحت دباجات عديدة أقرتها هيئاتهم ومنظماتهم وتحت ما يسمى بحقوق الإنسان, والشيخ في كتابه الاستعمار أحقاد وأطماع يورد أدلة وشواهد وقصص كثيرة تثبت المسعى الحقيقي لهؤلاء، فيذكر مثلا اعتراف لأحد الحكام الفرنسيين عندما احتلوا الجزائر قوله: "إن آخر أيام الإسلام قد دنت، وفي خلال عشرين عاما لن يكون للجزائر إله غير المسيح، ونحن إذا أمكننا الشك في أن هذه الأرض تملكه فرنسا، فلا يمكن أن نشك على أي حال أنها قد ضاعت من الإسلام إلى الأبد، أما العرب فلن يكونوا ملكا لفرنسا إلا إذا أصبحوا مسحيين جميعا.... يعلق الشيخ بقوله: "إن قتل المسلمين جملة وتفصيلا بعض ما تواضع عليه ساسة أوروبا وأمريكا، والخلاص من دينهم هو أمنيتهم الحبيبة، هو أمنيتهم التي يسعون لتحقيقها جهرة واغتيالا..."[36].

إن هذا الخطب الجلل والأمر العظيم يدفع بأمة الإسلام أن تنهض وتستفيق من سباتها وتغير من تفكيرها لتعلم علم اليقين ما يكنه لها أعدائها، والتي اتخذت منهم أولياء على أمورها، لتتسلح بسلاح التوحيد والفكر السليم لمواجهة الأخطار المحدقة بها، فالتغيير لن يحصل مالم تكن مدرعة بالعقيدة الصافية الصادقة وتذود بالحمى عنها، وإن من " واجبنا وفي يدنا شعلة النور وقارورة الدواء، أن نتقدم لنصلح أنفسنا، وندعو

غيرنا، وإن نجحنا فذاك، وإلا فحسبنا أن نكون قد بلغنا الرسالة، وأدينا الأمانة وأردنا الخير للناس"[37]. وهذا لابد له من الاعتزاز بأنفسنا، ونؤمن بدعوتنا ونبذل أنفسنا وأرواحنا للوصول إلى غايتنا، نجاهد بكل ما أوتينا لنصنع النجاح المأمول والهدف المنشود.

كذلك من القضايا العقدية المهمة التي تنحر من كيان الأمة الفلسطينية هي قضية فلسطين والنكبة التي حلت بها، فهذه القضية بالدرج الأولى هي قضية إيمان، قضية معتقد راسخ أن الأرض أرضنا، وأن شعبها مسلم وهي جزء لا يتجزأ من قطر الأمة، "إن قضية فلسطين هي قضية الإسلام، والمسجد الأقصى ليس أثراً عربياً، إنما هو معلم إسلامي يعني جميع الأجناس التي اعتنقت هذا الدين. والأرض من الفرات إلى النيل هي الامتداد الزماني والمكاني لجهاد السلف الأول، الذي قضى على الإمبراطوريات الكسروية والقيصرية، وأقام الحنيفية السمحة في هذه الأرجاء .وضياع الأقطار الإسلامية من الفرات إلى النيل، معناه ضرب الوسط تمهيداً للإجهاز على بقية الأطراف في الشرق والغرب"[38].

فقد ظل الشيخ يهتم بها دائما في دعواته وكتاباته منذرا بالخطر المحدق بنا في قيام الكيان الصهيوني وتبدد دولة فلسطين، وهذا راجع لغفلة هذه الأمة من تدابير وخطط تحاك لها، وضعفها في الوسط الدولي لا مبالاتها بما يحدث في الشأن الديني والسياسي، يقول الشيخ: "أكاد أجزم بأن الأمة العربية والإسلامية في مطالع هذا القرن لم تكن تدري شيئا عن الخطة الهائلة الموضوعة لتمزيقها والتهامها. في سنة 1897م انعقد أول مؤتمر صهيوني عالمي لإقامة وطن قومي لليهود، على أرضنا طبعا... فأين للرد عليه مقالات الأدباء وقصائد الشعراء وتحذيرات الساسة وتكاثف المجاهدين وتراص القوى المؤمنة لمواجهة هذا العدوان؟ إن ضياع الوحدة العربية وضعف الجامعة الإسلامية في هذه الفترة العصيبة من تاريخ العرب كانا العون الأكبر للاستعمار في غرس هذا الخنجر المسموم في كياننا، وتركه يعمل عمله الخبيث في التربص بالعرب والكيد لهم"[39].

لقد أدرك بنو إسرائيل أن الحرب دينية فهاجموا باسم التوراة وأقاموا أرضهم على معتقد الهيكل المزعوم، أما العرب المسلمون فهيهات لهم ذلك لم يدركوا هذه الحقيقة فتوالت هزائمهم الواحدة تلوى الأخرى، يقول الشيخ: " فبنو إسرائيل يديرون المعركة على أساس ديني بحت، واستقدموا أتباع التوراة من المشرق والمغرب قائلين: تعالوا إلى أرض الميعاد، تعالوا إلى الأرض التي كتبها الله لأبيكم إبراهيم كما أكد العهد القديم"[40]. إن هذه القضية لابد أن تحمل رايتها الدينية راية الحفاظ على الإسلام وأهله وأن لا تنخدع بمسميات أخرى كالقومية والعربية وغيرها من الوحدات التي تفرق المسلمين لا أن تجمعهم، "فقضية فلسطين خاصة يستحيل تجريدها من طابعها الديني، والقول بأنه يجب طرد المستعمرين اليهود من بلادنا، كما يجب طرد المستعمرين البيض من جنوب أفريقية، وأن كلا النظامين يقوم على نزعة عنصرية، هذا الكلام تغطية سخيفة لحقائق مرة.

إن العدوان اليهودي المدعوم بقوى الصليبية العالمية له غاية مرسومة معلومة، هي إبادة وإزالة دين، هي الإجهاز على الأمة العربية التي حملت الإسلام أربعة عشر قرناً، وتريد أن تظل عليه شكلاً إن تركته موضوعاً... والذين يبعدون الإسلام عن معركة فلسطين، يشاركون في تحقيق هذه الغاية، لأن فلسطين من غير الدفع الإسلامي زائلة، والعرب من بعدها زائلون، والمسلمون بعد زوال العرب منتهون، وهذه هي الخطة"[41].

وعليه لابد من فهم هذه القضية فهما دينيا نستوعب فيه أن أرض المقدس هي من رموز الإسلام وأنها من مقدساته ويجب استرجاعها باسم الدين والجهاد في سبيل الله، وهذا لا يكون إلا بالرجوع إلى ديننا وتغيير

معتقداتنا الفاسدة، ونتوجه لله ونوثق صلتنا به، ونتمسك بديننا ونخلص أعمالنا، فنحن نحتاج إيمانا قويا وراسخا يكون حصنا لنا من أطماع الحاقدين والخائنين.

رابعا- استراتيجيات التغيير

إن التغيير الذي تحدث عنه الغزالي يستوجب منا دراسة عميقة لأحوالنا، واستراتيجية في فهم ذاتنا لنعرف موطن الخلل ونقضي عليه، فالانتقال من حال السوء إلى الحال المحمود يتطلب منا القضاء على ذلك السوء. ومن العلل التي أصابتنا التخلي عن القضايا المهمة والاشتغال بالقضايا الجانبية التي لن تؤثر كثيرا في تحسين أحوالنا، وهذا الوضع أصبح سريرة لدى جميع الفئات بأن تشتغل بالقشور وتترك اللب الذي يحتاج إلى الاهتمام والتغيير، والشيخ كثيرا ما يطرح هذا الإشكال مستغربا منه خاصة في القضايا الفرعية في أمور العبادات وموقف المسلمين منها قوله: "هناك حديث آخر يمكن التوسع فيه والحماس له وشغل الغوغاء بقضاياه مثل الصلاة بالنعل أفضل أم بالحفاء؟ الحج مع التمتع أفضل أم مع الأفراد أو القران؟ ومع الاستبحار في هذه القضايا هناك قضايا أخرى يجب الانتهاء فيها إلى رأي زائغ (الحاكم لا تقيده الشورى)، (الانحراف عن الحاكم فتنة)... ثم تشد خيمة الغيبيات السماعية لتنسحب على مساحات كبيرة من عالم الشهادة، فإذا التدين أحاجي وسحر وطلسمات غامضة، وقصور شائن في ميدان الفكر والاجتهاد وشؤون الدنيا"[42]. فهذه الخلافات البسيطة التي لا تؤثر، كان لها نصيب الأسد من اهتمامات المسلمين غافلين عن القضايا الكبرى التي تصنع فارقا كبيرا في أحوال الأمة. ويذكر الشيخ أيضا أنه في إحدى خطبه تطرق إلى الطوفان الذي أخذ قوم ونوح والآراء التي قيلت حوله هل هو محلي أم عالمي؟ وأنه قد رجح بأنه محلي، فإذا بالمستمعين يكثر اللغط بينهم ووصل الأمر بقولهم إنه خروج على الإجماع ووصل بهم الأمر إلى أن ينعتوهم بالكفر...[43]، إن هذا الأمر لا يعدو أن يكون مجرد رأي في التاريخ لن يمس بإيمان ولا كفر ولا عقيدة ولا عبادة ولا خلق ولا سلوك، ويستغرب الشيخ من هؤلاء منكرا عليهم هذا الأمر بقوله: "ومع ترجيحي أن الطوفان محلي فإني أستغرب ربط ذلك بالإيمان والكفران والشدود والإجماع والغصب والرضا والمخاصمة والمصالحة... لماذا تحيصون هذه الحيصة وتريدون أن تخرجوا من مجلس علم أحزابا متفرقة لا إخوة متحابين وأصدقاء متعاونين متضاحكين؟"[44].

إن هذه القضايا غيض من فيض من جمل القضايا التي طرحها الشيخ الغزالي في حسرته على أوضاع المسلمين اليوم، واهتمامهم بهذه القضايا الهامشية واستلائها على قضاياهم الكبرى التي ضربوا بها عرض الحائط، وللأسف فهذا مرض نخر بالأمة وجعلها ضعيفة سهلة المنال قابلة للاستعمار، "وبهذا التخلف الإداري والعمراني، استقبل المسلمون الاستعمار الحديث، فكانوا يصابون بهزيمة تلو الأخرى، وتسقط بلادهم بلدا بعد بلد، وبعضهم لا يعرف شيئا عن الآخر ولا عما يلاقيه"[45].

أيضا من الأمر التي شغلت فكر الشيخ التعصب المذهبي الذي بليت به أمتنا، فقد كان سببا في الخلافات والشجارات الموجودة بين مختلف متتبعي المذاهب الأربعة، وكان يمكن أن نتجاوز هذه المحنة بفهم بسيط أو حل متفق عليه يضعه علماء أمتنا لكن المرض قد استحكم، يصف الشيخ هذه العلة بقوله: "في هذه الأيام العجاف رأيت حرائق تندلع إثر خلافات مستصغرة، ورأيت دين الله يتسع لوجهات نظر لها وزنها المتقارب، ولكن دنيا الناس تضيق بما وسعه دين الله، إن الفقه مظلوم عندما نحمله اشتجار الآراء واحتدام العصبيات وتجريح الرجال، أو لعل المسؤول ضعف التربية الخلقية والآداب النفسية: فمتى نبرأ من هذه العلل؟"[46].

ودواء ذلك أن نهذب ونؤدب أنفسنا على احترام الرأي الآخر وتقبله وأن يكون الرأي رأيا لا يمس بهيبة صاحبه أو معاداته وتجاوز هذه الخلافات دون أن تؤثر فينا أو أن تنسينا قضايانا الكبرى، وهذا لن

يكون إلا عظماء النفس وعلماء الدين المخلصين، يقول الشيخ: "الواقع أن الخلاف العلمي لا يثير الحفائظ إلا لدى الرعاع، ولعله يكون متنفسا لمآرب وأهواء عند من لا يتقون الله، أما العلماء الكبار فلهم شأن آخر، ألا ترى أن مالكا رضي الله عنه يرفض عرض الخليفة أن يجمع الناس على كتابه "الموطأ"، لماذا لأن لدى الناس علما آخر قد يؤثرونه على موطئه فلا يجوز حملهم بالقصر"[47]. وعليه فمن الحكمة أن لا نتعصب لمذهبنا ونخطأ الآخرين لأنهم يتبعون مذاهب أخرى، فكل عالم له حجته في مذهبه، والخلاف القائم لا يتجاوز دائرة النظر وحرية البحث. "فيجب أن ندرس المذاهب على أنها وجهات نظر متساوية القيمة وأن تناقش الأدلة وتوزن الاتجاهات بحياد علمي وصدر مفتوح لا مكان فيه للخصومة والجفاء وتفريق الأمة"[48]

أيضا من الأمور التي نتأسف عليها الواقع الدولي الذي تعيشه الأمة والذي كاد يقضي على وجودها، فلو لا الوحي المقدس الذي أنبأنا بعلو الإسلام وانتشاره ووقوفه ضد كل المؤامرات لما سمعنا اليوم به ولا كانت له شوكته إلى اليوم، وما كان لمعتنقيه وجود. ذلك أن التاريخ إلى اليوم يحدثنا عن الأهوال التي تعرضت لها الأمة الإسلامية من تنصير وإبادة ومجازر تشيب لها الولدان، لو تعرضت لها أمة أخرى لفنيت ولم يعد لها وجود، وأصبحت في صفحات النسيان تطوى وتروى على المسامع فقط. لقد ذكر الشيخ في كتابه الاستعمار أحقاد وأطماع الكثير من المجازر والحروب الصليبية التي تعرضت لها الأمة، وشهادات لأعدائها الذين كان هدفهم القضاء على الإسلام وأهله ثم أردف قائلا: "ومضى الاستعمار الصليبي في سياسته المرسومة يحيك المؤامرات للمسلمين ودينهم في المجالات الدولية... ويبذل جهوده لخذلان قضاياهم وبعثرة قواهم، وإظلام مستقبلهم، وضرب بعضهم ببعض، ولم يستح من كشف القناع عن أطماعه وأحقاده في مأساة فلسطين والجزائر، إذ قرر في عناد تهويد الأولى وتنصير الثانية، ولم تكن هذه الضربات إلا تمهيدا لاجتثاث جذور الإسلام كله من العالم، ثم تتخير أمته بين الارتداد عنه أو الفناء معه"[49].

ناهيك عن هذه الحملات الشرسة الوضع المخزي لأمتنا فهي لا يكون لها وجود في القرارات الدولية ولا يكون لها رأي في القضايا العامة، أيضا عدم الاهتمام بالأحداث التي تصيبها ولو كانت مجازر بألوف فهذا لا يهم الرأي العام ولا يحرك للصحافة شعرة لا لشيء إلا لأن هذا الحدث يخص المسلمين، ودائما ما يعرض الشيخ أحداثا كهذه ويتعجب من رخص الدم الإسلامي في العالم " إن إحراج يهودي واحد في روسيا يثير عاصفة من الكلام حول حقوق الإنسان، وحول عداوة السامية أما مقتل المئات والألاف من المسلمين في إفريقيا وآسيا وأوروبا فالخطب يسير، وقد يثار بعض اللغط ثم تنسى المأساة"[50].

كما حدث في جزيرة مدغشقر حينما طالبت حريتها "فكان جزاء الثائرين أن تحركت القوات الفرنسية وقتلت من الأهلين ثمانين ألف نسمة... ساد الجزيرة صمت مطبق وقضى على حركة التحرر فيها قضاء لا يعرف مداه، وركنت بقية الأحياء إلى الخنوع وهم في فزع لمقتل الآباء والأبناء والأمهات والبنات بهذه الصورة المسرفة. أما الفرنسيون فقد استأنفوا حمل مشعل الحضارة مع غيرهم من مؤسسي هيئة الأمم المتحدة..."[51].

وهذا نموذج بسيط يحكي معاناة الشعوب التي استباحتها أيادي الاستعمار، وذنبهم الوحيد أنهم فقط ينتمون إلى العالم الإسلامي. إن حدثا كهذا أول أقل منه حدث لطائفة من اليهود أو النصارى لقامت الدنيا عليهم وما قعدت، ولم تهدأ حتى تأخذ حقها أضعافا مضاعفة، كيف لا؟ وهم ينتمون إلى العالم الأقوى اليوم، العالم الذي يدير شؤون الدول بقوانينه وتشريعاته، وتبقى كل الحسرة على المسلمين الذين كاد يلغى وجودهم في هذا العالم، لأنهم فقط مسلمين ضعفاء منتمين إلى التخلف والرجعية.

خامسا- التغيير وأساسيات الإصلاح

حري بأمة بلغ بها الأمر ما بلغ أن تعيد ترتيب أوراقها، أن تعرف علتها وتداويها، أن تسارع للصلح مع نفسها وتبدأ مشوارها في إثبات وجودها ومسايرة أقرانها من الأمم، وذلك بالمشي في طريق الإصلاح، وذلك لن يكون لها إلا إذا تتبعت طريق محمد عليه الصلاة والسلام، لأنه النموذج الأمثل والقدوة الحسنة في إصلاح النفوس والأمم، فقد "حدد رسول الإسلام الغاية الأولى من بعثته، والمنهاج المبين في دعوته ليتمم مكارم الأخلاق، فكأن الرسالة التي خطت مجراها في تاريخ الحياة وبذل صاحبها جهدا كبيرا في مد شعاعها وجمع الناس حولها، لا تنشد أكثر من تدعيم فضائلهم إنارة أفاق الكمال أمام أعينهم حتى يسعوا إليها على بصيرة"[52]. فجوهر رسالة الإسلام هو الخلق والتربية الحسنة سواء للفرد أو الأمة، وإن طريق الغي والظلم والطغيان يزيد الأمة من ضلالها ومن ابتعادها عن الصراط المستقيم، وتعاليم الإسلام جاءت "لتنقل البشر خطوات فسيحات إلى حياة مشرفة بالفضائل والآداب، وأنه اعتبر المراحل المؤدية إلى هذا الهدف النبيل من صميم رسالته، كما أنه عد الإخلال بهذه الوسائل خروجا عليه وابتعادا عنه"[53].

إن التربية النفسية هي أهم شيء يحتاجه الفرد والمجتمع الآن، فهنا منطلق التغيير فالأوضاع اليوم تستدعي منا أن نبصر في نفوسنا ونهذبها وننزع موطن الخلل فيها، وذلك بأن نعود العودة الصحيحة لقواعد ديننا في تزكية النفس وإعدادها إعدادا جيدا لتحمل على عاتقها هموم الأمة وتداوي جراحها التي لم تزل تنزف، أن تسعى جاهدة للحوق بركب الحضارة ويكون لها السيادة على الأمم بوصفها خير أمة أخرجت للناس بالأخلاق العالية والقدوة الحسنة، وهذه رسالة الأديان فهي "لن تخرج عن طبيعتها في اعتبار النفس الصالحة هي البرنامج المضل لكل إصلاح، والخلق القوي هو الضمان الخالد لكل حضارة... وهذا تنويه بقيمة الإصلاح النفسي في صيانة الحياة وإسعاد الأحياء"[54]. كما أنه لا يمكن للنفوس المريضة والمتدنية أن تسعى للإصلاح فضلا على أن تحققه، وتخلق الفوضى في النظم والفساد في المجتمع والأحوال المختلة في الأرجاء "فإذا لم تصلح النفوس أظلمت الآفاق وسادت الفتن حاضر الناس ومستقبلهم"[55].

ومن أساسيات هذا الإصلاح: وضع مناهج للتربية والتعليم وإعداد العلماء، فللتعليم أهمية كبرى في تربية الأجيال وإعدادها، فالأمة التي تهتم بالبرامج التعليمية وتصيغها وفق هويتها وتعطي له الحصة الكبرى من ميزانيتها وتعد له جميع الوسائل في سبيل إنجاحه هي أمة قوية علمت كيف تبدأ نهضتها وتسير للأمام، لأنها اهتمت بالأفراد الذين سيحملون المشعل في الحاضر والمستقبل. وكل الحسرة على الدول الإسلامية التي جعلت من التعليم آخر اهتماماتها، ناهيك على أن يكون وفق ما يمليه عليه دينها. فأصبحت البرامج التعليمية غربية المنهاج والمعرفة لا تعطي للدين بالا، وقللت من شأنه وروجت على أنه سبب تخلفنا.

يقول الشيخ في وصف التعليم في صدر الإسلام: "إن التعليم الأصلي في صدر الإسلام لبى حاجات الأمة التربوية والتشريعية والأدبية، وقدر قدرة تامة على تكوين أجيال ناضجة، وجعل المسلمين عالميا أمة تعطي أكثر مما تأخذ، بل جعلها تدفع ولا تندفع تغزو ولا تغزى، نعم كان المسلمون بازدهارهم العلمي الأمة الأولى في العالم"، وعليه يجب علينا مراجعة أنفسنا ومراجعة أنظمة التعليم في بلادنا لأن الخلل موجود فينا وفي فكرنا وليس في إسلامنا. لابد من إزاحة هذه الغمامة السوداء على فكرنا وأن نوجه جهودنا للاهتمام بالتعليم وبرامجه وفق معطيات ديننا الحنيف، وذلك لا يكون إلا على يد ثلة من العلماء الصادقين الذين يفهمون صالح بلادهم. يقول الشيخ: "والشرق الإسلامي يحتاج في نهضته إلى نظام يشرف على رجال المستقبل من نعومة أظافرهم، وإلى استنبات سلالات جديدة من الأجيال التي تترعرع بين أفياء المعرفة والتربية والثقافة الواسعة، ذلك إن أردنا تكوينا صحيحا لأمة حية قوية. وإنه لمن المحزن أن نعالج أمورنا

من غير هذه السبيل"[56]. والشيخ يؤكد كثيرا أنه لن يصلح حال هذه الأمة إلا بما صلح أولها، لذلك يجب إعداد القادة والعلماء والفاتحين كما في سلف هذه الأمة الذين تربوا على يدي القرآن، وسنة النبي محمد عليه أفضل الصلاة والسلام، والسير على دربهم وأخذ الهمة منهم والمشي على خطاهم "فالظلام القديم لن يبدد غيومه إلا جيش كبير من الهداة الأوائل، ممن يجددون سيرة السلف الفاتحين"[57].

كذلك من أسس هذا الإصلاح: نقد الواقع السياسي وفساد الشعوب بسبب الاستبداد وغياب العدالة الاجتماعية فالكثير من دول العالم الإسلامي تعاني من الفساد السياسي والذي هو أحد أسباب تراجعها وانحطاطها، فزعماء الدول اليوم ابتلوا بحب المنصب والطغيان على الشعوب واستبدادهم، وقد أفرد الشيخ الغزالي كتابا حول الإسلام الاستبداد السياسي مبينا فيه مظاهر هذا الاستبداد وبراءة الإسلام منه، والفساد الحاصل اليوم إنما هو بسبب تجاهلنا لأحكام الدين "إن بعض الواهمين اليوم عندما يروعهم فساد الحكم وشرور المجتمع فيذهبون إلى الدين يطلبون الحل لما يعانون من أزمات معنتة، ربما توقعوا أن يمدهم الدين ببرامج مفصلة وشروح دقيقة لما يقع ولما يتوقع من طغيان، وما دروا أن الظلام الضارب في كل أفق يرجع إلى تجاهل وصية بديهية من وصايا الدين، أو الخروج على تعليم واضح من تعاليمه"[58]، فمكمن الداء ليس في تعاليم الدين الحنيف التي هي في أصلها خير للمسلمين والإنسانية، إنما كانت العلة بسبب تجاهل هذه التعاليم واستبدالها بتعاليم غربية علمانية لا تلتقي مع ما شرعه الله، ويوضح الشيخ سبب الاستبداد الذي وقعت فيه الشعوب الإسلامية قائلا: "والاستبداد السياسي الذي وقعت الشعوب الإسلامية فريسة له من أمد طويل وظلت إلى اليوم ترسف في قيوده ليس مرده إلى أن الإسلام نقصته عناصر معينة... كلا ففي تعاليم الإسلام وفاء بحاجات الأمة كلها وضمان مطمئن لما تشتهي وفوق ما تشتهي من حريات وحقوق، إنما بطشت مخالب الاستبداد ببلادنا وصبغت وجوهنا بالسواد، لأن الإسلام خولف عن تعمد وإصرار، طرحت أرضا البديهيات الأولى من تعاليمه، وقام في بلاد الإسلام حكام تسري في دمائهم جراثيم الإلحاد والفسوق والمنكرات فخرجوا سافرين عن أخلاقه وحدوده"[59]، وهذا الاستبداد هو نتيجة لرضوخ الشعوب لما يملى عليها، فسكوتها أدى إلى طغيان الحكام ونشر أنواع الرذائل والكساد، وعلى عكس من ذلك فإن إرادتها هي التي تصنع الفارق، "فان أي حكم رفيع القدر لن يبلغ غايته إلا إذا ظاهره شعب نفيس المعدن عالي الهمة! إذن الشعوب هي الأصل؟ أو هي المرجع الأخير! وعلى بغاة الخير أن يختلطوا بالجماهير لا ليذوبوا فيها وإنما ليرفعوا مستواها ويفكوا قيودها النفسية والفكرية؟ قيودها الموروثة أو التي أقبلت مع الاستعمار الحديث..."[60]. هذا الاستبداد لن ينجلي إلا بجهود جيش من الدعاة والعلماء ليغيروا من تفكير هذه الشعوب ويفكوا أسرهم من أغلال الانقياد والخضوع، وذلك بان يسيروا على ما سار به المرسلون، وينشروا متسعا من الحرية لديهم لأن الإسلام يسعى لتحرير الأفراد لا استعبادهم، ويضمن لهم حقوقهم إن قاموا بواجبهم نحوه.

ومما يعين على إصلاح هذه الأمة وانبعاثها وجود الخير فيها، فالطابع الذي رسمت به هذه الأمة منذ أن نزلت بها رسالة الإسلام الخالدة، قد ميزها رب العالمين بأن أصبحت خير أمة أخرجت للناس يقول تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْراً لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (آل عمران: 110). وهذا الاختيار سببه كما ذكر في الآية بأنها أمة تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر تحت راية الإيمان، ولما تخلت عن مهمتها ونسيت وظيفتها أصابها ما أصابها من ويلات الضعف والذل والهوان، يقول الشيخ متسائلا: " فهل تولت أمتنا هذا المنصب؟ وهل تأهلت له بفقهها ومسلكها؟ أم زاحمت غيرها على طلب المتاع والتعلق بالدنيا؟ الذي يبدو

لي أن المسلمين شعوبا وحكومات هبطوا دون المستوى المنشود، بل هبطوا دون مستوى غيرهم ممن لم يشرفهم وحي، ويكلفوا بحمل رسالته"[61].

إن العودة لهذا المنصب يتطلب منها اليقظة من هذا الظلام الطويل، هذه اليقظة التي بدأ نورها يسطع في الأرجاء معلنة أن النصر والغلبة لهذا الدين، وأن هذه الأمة وإن طال سباتها فإنها ستحيا لأنها أمة الخير لها استعدادها دوما لأن تقدم للعالم النموذج الحضاري المنشود والذي كان منذ قرون خلت، "إن الخاصة الأولى للأمة الخاتمة أنها غيورة على الحقيقة، لا تطيق تشويهها ولا إغفالها، ومن ثم فهي لا تسكت عن أمر بمعروف أو نهي عن منكر..."[62]، وهذا هو الواجب الذي اختصت به كونها شرفت بالوحي الإلهي الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، "والوظيفة الأولى للإسلام أن تري الأمم الأخرى آفاق الخير الذي تدعو إليه مشرفة في حياتها هي، في أخلاقها وتقاليده وعباداتها ومعاملاتها وآدابها وفنونها وملاهيها وأسواقها وقراها ومدنها، أي في جميع أنشطتها التي تكشف عن أعماقها وآمالها"[63]، فهذه الأمة باقية ما بقي الوحي، فمهما اشتد الحبل بها سيقطعه إيمانها القوي وجهادها الفتي، وستعود للنهوض مهما بلغ بها التخلف والجمود، إنها سنة الله في خلقه بأن تنبعث مرة أخرى لأنها خير أمة أخرجت للناس.

إضافة على ذلك فإن أمة الإسلام التي تسعى للنهوض والإصلاح لابد لها من إعادة صياغة علومها وتجديدها، خاصة التجديد في الفقه الإسلامي، فالفرد المسلم يحتاج اليوم وفي ظل القضايا المعاصرة والمستجدات الكثيرة، أن يجدد في بعض أمور دينه الفقهية، وهذا التحديد لا يعدو أن يكون خادما لمصلحة الإسلام والمسلمين من جهة، ومن جهة أخرى أن يبين مرونة الشريعة الإسلامية واحتوائها على كل متطلبات الفرد، وأن يكون هذا التجديد امتدادا للفكر الحضاري والموروث الثقافي الذي شهده المسلمون منذ نزول الوحي إلى يومنا هذا، والشيخ الغزالي اهتم بهذا التجديد الفقهي ورأى أنه ضرورة عصرية للمسلمين، وهو دائما ما يدعو المسلمين لإعمال عقلهم في كل مناحي الحياة لأنه سبب تميزهم "إن العقل الإسلامي لو التزم الخط القرآني المشغول بالملاحظة والتجارب المهتم بالتنقيب والحقائق، الجواب في آفاق الأرض والسماء لكان له شأن آخر، ولقدم نجدات صادقة مثمرة للمنهج العلمي الكوني الباحث في المادة لا فيما ورائها... يستحيل أن يحمي المسلمون دينهم وأن ينضج إيمانهم بربهم إلا إذا تفقهوا في آيات الله العيانية والبيانية جميعا، وازدهرت لهم حضارة مدنية وعسكرية تغلب ولا تغلب وتقود ولا تقاد"[64].

والتجديد الفقهي الذي عنى به الغزالي لابد له من ضوابط تقيده كالتفريق بين الاجتهاد وبين الجرأة على الدين. وقد أعطى أمثلة حول الخمر والربا الذين استباحهما بعض أشباه المفكرين الذين كانت لهم الجرأة في فهم الآيات وفق أهوائهم، وذلك لأنهم أرادوا أن يسايروا غيرهم على حساب دينهم فضلوا وأضلوا وكان ذلك تحت غطاء النسخ في القرآن، وقد رد عليهم بقوله: "والخلاصة أن الله ارتضى لعباده حكما واحدا في الربا والخمر، وفي سائر المحرمات، وأنه جلت حكمته تلطف في أخذ عباده بهذا الحكم، وتدرج في حملهم عليه وذلك بتهيئة أحوالهم النفسية والاجتماعية لقبوله وتنفيذه، حتى إذا تكاملت الصلاحية المنشودة لتطبيق الحكم المراد انكشف الغطاء الذي كان يتزحزح قليلا قليلا عن الحقيقة التشريعية الأزلية"[65]، وغيرها من القضايا التي أزال عنها الشيخ الغموض والفهم الخاطئ الذي كان يسود المجتمعات الإسلامية لأزمنة طويلة، فالتجديد إما أن يكون إحياء للسنن التي نسيت وحث الناس على العمل بها، وكثيرا ما كان الشيخ يلزم المسلمين باتباع السنن المجهولة والتي تعود بالخير والنفع عليهم، ويكون أيضا لقمع البدع المحدثة والجاهلية التي تربى عليها الناس وتصفية الدين منها، والتجديد كذلك معالجة القضايا المستجدة وإنزالها وفق أحكام

الشرع، خاصة فيما يتعلق بقضايا الحكم وذلك من خلال كتابه الإسلام والاستبداد السياسي، وقضايا المرأة في كتابه قضايا المرأة بين التقاليد الوافدة والراكدة. وكذلك قضايا أخرى طرحها في مختلف كتبه.

والأمة التي تسير على طريق الإصلاح لابد لها من تمحيص الأفكار الوافدة والتجديد الفكري وإعادة قراء التراث الإسلامي. فالعالم الإسلامي أصبح حاوية للأفكار الغربية التي تلبي حاجاته الفرعية فلبس لباسا خارج مقاييسه، فأصبح بذلك يتخبط بين هويته الدينية والأفكار الغربية، فلا هو أصبح إسلاميا صحيحا ولا غربيا قويا، وكثيرا ما يؤكد الغزالي على غربلة الوافد إلينا من الغرب وأن نزنه بميزان الشرع "كان يجب على المسلمين أن يغربلوا مواريثهم التي أثقلت كواهلهم، وقذفت بهم في ذيل القافلة البشرية وأن يحاكموا أعمالهم وأحولهم إلى الوحي الأعلى فيمحو ما يخالفه وهو كثير..."[66]، وهذا الأمر مطلوب في كثير من الأفكار الوافدة إلينا خاصة فيما يتعلق بجانب العقائد لأنها تهدمها وتدخل الكثير من الشركيات علينا. كذلك في الأمور التشريعية التي يفصل فيها بين الحلال والحرام لأن ذلك ليس بالأمر الهين فهو عند الله عظيم وعندنا خسران مبين "فتعاليم الإسلام في هذه الأيام تهب عليه رياح صفراء من مصادر جديرة بالتفرس والحذر، وغايتها لا تخفى علينا إنها الإطاحة برسالة محمد كلها تحت عناوين مفتعلة، الاعتماد على القرآن واطراح السنة، الاعتماد على القرآن المكي وترك القرآن المدني، تعطيل نصوص قائمة قد تكون عبادية كشريعة الصيام، فيقال: الصيام يضر الإنتاج فلنلغ رمضان، وقد تكون معاملات اجتماعية كأنواع الحدود والقصاص، فيقال إقامة هذه العقوبات تكثر هذه العاهات وتشيع البطالة فلنتجاوزها إلى ما هو أعدل منها وأرعى للصحة العامة؟"[67].

هذا الابتداع الخطير لابد له من صد ورد بالبيان الحقيقي للتعاليم الإسلامية والحكمة منها. والأمة اليوم أيضا بحاجة إلى التجديد في فكرها لمواجهة التيارات الفكرية الحديثة التي تعصف بها فهي تعاني من مرض خطير يقال له الاتباع والتقليد، وما علمت أن سر صعودها هو مواكبتها لمستجدات عصرهاالتي تتوافق مع دينها، ونبذها للتقليد الذي كان آفة ولا يزال يحل بالأمم. إنها تحتاج اليوم إلى منظومة فكرية تجديدية تثبت بها نفسها وتواجه بها أعدائها يقول الشيخ: "فالمسلمون اليوم مكلفون بهداية الفكر الإنساني والقلب الإنساني والواقع الإنساني في كل موقع من دنيا الناس، وهل يستطيع ذلك جاهل بقضايا الفكر والقلب والواقع"[68].

والتجديد الفكري في كتابات الغزالي نجده واضحا في فهمنا وتفسيرنا للقرآن الكريم، كذلك في السنة النبوية وتخليصها من كل الشبهات التي تحوم حولها، وذلك من خلال الاعتماد على الأحاديث الصحيحة ونبذ الأحاديث الضعيفة والموضوعة والتعامل مع السنة في كل أمورنا والتعايش معها، كذلك في أساليب الدعوة التي اعتمدها الشيخ والتي توافق الأساليب الحديثة وتؤثر في المجتمع، إضافة إلى ذلك ما قدمه في الجانب السياسي والاقتصادي من أفكار تساعد المسلم على التعامل مع ظروفه الراهنة. لقد كان له الأثر الكبير في تبديل العقلية الإسلامية وتوجيهها في الميدان للإصلاح والإنتاج. وهذا طبعا لا يستدعي منا إلغاء تراثنا أو تهميشه، بل لابد له من قراءة جيدة ونقدية نأخذ منها ما يصلح لأحوالنا ونستفيد منه في مختلف أوضاعنا، يقول الشيخ عن علمي الكلام والتصوف: "وأي منصف يتدبر القرآن الكريم في طل السور وعرضها، يشعر بأن الإيمان الذي يصنعه هو إيمان الرغبة والرهبة... وكان المفروض في ثقافتنا الذاتية أن علمي الكلام والتصوف يشرفان على هذا الجانب ويقومان بتصوير العقائد...بيد أن ملابسات شتى أحاطت بهاذين العلمين، فإذ إثمهما أكبر من نفعهما، فماذا صنعنا نحن لنصلح مسارهما ووجهتهما؟"[69].

ويؤكد أن العقل الإسلامي اليوم قد أخطأ المنحى في قراءته للتراث، وأنه سبب ترديه في فكره وتخلفه الحضاري وانتكاس دعوته، "فنحن نجمد من تراثنا ما يجب تحريكه، ونحرك ما يجب تجميده، ونجنح إلى ما يثير الخلاف، وعصرنا يتطلب منا موقفا أرشد في خدمة رسالتنا المضطهدة"[70]. وعليه فنحن المسلمون مطالبون بتنقية تراثنا واستغلاله فيما يعود بالنفع علينا ويحرك من تقدمنا لأنه أمر مطلوب في تبليغ رسالتنا نحو العالم.

خاتمة:

إن التغيير في فكر الشيخ الغزالي أحد أهم الأسباب التي يحب اتخاذها من أجل الإصلاح والتقدم نحو الأفضل. فالتغيير أمرا مطلوب وجهد مبذول واعتقاد راسخ وإيمان ثابت. ولابد أن يكون هذا التغيير على مستويات ذكرها الشيخ في كتابته، فعلى الفرد السعي الدؤوب في تغيير نفسه أولا بالإيمان والعلم، وإشغالها بكل ما يفيدها ويطورها لتحقيق منافعا لها ولغيرها. وخلصت هذه الدراسة إلى عدة نتائج وتوصيات وهذه أهمها:

- التغيير هو المحاولة الإيجابية المستمرة لتحقيق الأفضل على مستوى الفرد والجماعة.
- من سنن الله الكونية أن التغيير في الجماعة لا يكون إلا بتغيير الأنفس أولا.
- دافع التغيير هو السؤال الحضاري للشعوب والتخلص من الرجعية والتخلف والسير في طريق التقدم والرقي.
- تغيير الأمة الإسلامية لا يكون إلا بالرجوع إلى دينها واتخاذ تعاليمه منهجا لها.
- التغيير يكون على مستويات ثلاثة، على المستوى الفردي والجماعي والمستوى البيئي.
- لا يتم التغيير دفعة واحدة بل يكون عبر مراحل مختلفة.
- حرية الدين والفكر أساس في منهج التغيير والإصلاح، والظلم والاستبداد أحد الأسباب الرئيسية في انحطاط المجتمعات.
- الوحدة والهوية الدينية عامل هام في نهضة الأمة الإسلامية.
- الأخلاق الفاضلة تعريف للمجتمعات الراقية، وهي محور رئيسي في سبيل التغيير وصعود الأمم نحو القمم.
- العقيدة الصافية والحقة سلاح الأمة لبداية التغيير، والشرك والإلحاد طريق للضلال والانحراف.
- القضية الفلسطينية قضية عقيدة وعلى المسلمين إرجاعها باسم الدين.
- من مصائب الأمة اشتغالها بالقضايا الجانبية وتركها للقضايا المهمة التي تحتاج إلى الإصلاح والتغيير.
- المكانة المنحطة للأمة الإسلامية بسبب ضعفها وتخلفها عن صنع القرارات الهامة.
- الإعداد الجيد للفرد والجماعة وذلك عن طريق استصلاح التعليم وتكوين العلماء والدعاة.
- الفساد السياسي آفة في المجتمعات الإسلامية يجب محاربته.
- خيرية الأمة وغيرتها على الحق سبب لانبعاثها ولحوقها بالركب الحضاري.
- ضرورة تجديد الفقه الإسلامي عن طريق محاربة البدع وإحياء السنن ونزوله على القضايا المستجدة.
- تنظيف الأفكار الغربية وإنزالها بميزان الشرع، وتجديد الفكر الإسلامي ونبذ الاتباع والتقليد، وإحياء التراث الذي يخدم حاضرنا.
- التغيير يحتاج منا نفوسا صادقة وقلوبا مؤمنة، ويقينا ثابتا وأيادي قوية، وعقلا مستنيرا وعزما شديدا، وروحا صافية وأخلاقا فاضلة، ووحدة عظيمة ومنهجا إسلاميا، ونقدا ذاتيا وعلما تجديديا.

قائمة المصادر والمراجع:

القرآن الكريم
1- ابن منظور، لسان العرب، د/ط، د/ت، دار المعارف، القاهرة.
2- محمد الغزالي، سر تأخر العرب والمسلمين، ط7، 2005م، دار نهضة مصر.
3- محمد الغزالي، الغزو الثقافي يمتد في فراغنا، د ط، د ت، دار الشروق القاهرة.
4- محمد الغزالي، الفساد السياسي في المجتمعات العربية والإسلامية، د ط، 2005م، نهضة مصر.
5- محمد الغزالي، الدعوة الإسلامية في القرن الحالي، د ط، د ت، دار الشروق القاهرة.
6- محمد الغزالي، نظرات في القرآن الكريم، ط 6، 2005م، نهضة مصر.
7- محمد الغزالي، من مقالات الشيخ محمد الغزالي، ط4، 2005م، نهضة مصر.
8- محمد الغزالي، الحق المر، د ط، د ت، منشورات دار الكتب الجزائر.
9- محمد الغزالي، خطب الشيخ الغزالي في شؤون الدين والحياة، إعداد قطب عبد الحميد قطب، د ط، د ت، دار الاعتصام القاهرة، د ط، د ت، منشورات دار الكتب الجزائر.
10- محمد الغزالي، قذائف الحق، 1999م، دار القلم دمشق
11- محمد الغزالي، هموم داعية،ط6، 2006م، نهضة مصر.
12- محمد الغزالي، خلق المسلم، 1408هـ، 1987م، دار الريان للتراث.
13- محمد الغزالي، الطريق من هنا، د ط، د ت، دار الشروق القاهرة.
14- محمد الغزالي، الاستعمار أحقاد وأطماع، ط 4، 2005م، نهضة مصر.
15- محمد الغزالي، علل وأدوية، د ط، د ت، دار الشروق القاهرة.
16- محمد الغزالي، تأملات في الدين والحياة، ط4، 2005م، نهضة مصر.
17- محمد عمارة، مخاطر العولمة على الهوية الثقافية، 1999م، نهضة مصر.
18- عبد الله المصري، الداعية الشهيد محمد الغزالي، د/ط، د ت/، دار الاعتصام القاهرة.
19- علي بن محمد السيد الشريف الجرجاني، التعريفات، تحقيق محمد الصديق المنشاوي، د ط، 2004م، دار الفضيلة القاهرة.
20- يوسف القرضاوي، الشيخ الغزالي كما عرفته، 1420هـ، 200م، دار الشروق، القاهرة.
مواقع إلكترونية: https://www.ahewar.org/ ، موقع الحوار.

الهوامش

[1]- عبد الله المصري، الداعية الشهيد محمد الغزالي، د.ط، د.ت، دار الاعتصام القاهرة، ص 12.
[2]- عبد الله المصري، الداعية الشهيد محمد العزالي، ص 16.
[3]- يوسف القرضاوي، الشيخ الغزالي كما عرفته، ط1، 1420هـ-2000م، دار الشروق، القاهرة، ص13.
[4]- للاطلاع على مسيرته أكثر أنظر كتاب عبد الله المصري، الداعية الشهيد محمد الغزالي.
[5]- ابن منظور، لسان العرب، د.ط، د.ت، دار المعارف، القاهرة، ص 1035.
[6]- أنظر: سيف نصرت الهرمزي، فلسفة التغيير، موقع الحوار، تم الاطلاع عليه 2023/5/3، https://www.ahewar.org/
[7]- محمد الغزالي، سر تأخر العرب والمسلمين، ط7، 2005م، دار نهضة مصر، ص 6.
[8]- محمد الغزالي، الغزو الثقافي يمتد في فراغنا، د.ط، د.ت، دار الشروق القاهرة، ص 35.
[9]- محمد الغزالي، الفساد السياسي في المجتمعات العربية والإسلامية، د ط، 2005م، نهضة مصر، ص6.
[10]- محمد الغزالي، الدعوة الإسلامية في القرن الحالي، د ط، د ت، دار الشروق القاهرة، ص74.
[11]- محمد الغزالي، الغزو الثقافي يمتد في فراغنا، مصدر سابق، ص 38.
[12]- محمد الغزالي، الدعوة الإسلامية في القرن الحال، مصدر سابق، ص 69-70.

[13]- محمد الغزالي، نظرات في القرآن الكريم، ط 6، 2005م، نهضة مصر، ص 52-53.
[14]- محمد الغزالي، من مقالات الشيخ محمد الغزالي، ط4، 2005م، نهضة مصر، ص 125.
[15]- محمد الغزالي، الطرق من هنا، ص67.
[16]- محمد الغزالي، نظرات في القرآن الكريم، ص54-55.
[17]- محمد الغزالي، الحق المر، د ط، د ت، منشورات دار الكتب الجزائر، ص 11.
[18]- محمد الغزالي، الفساد السياسي في المجتمعات العربية والإسلامية، د ط، 2005م، نهضة مصر، ص 58.
[19]- المصدر نفسه، ص 60.
[20]- محمد الغزالي، قذائف الحق، 1999م، دار القلم دمشق، ص 235.
[21]- المصدر نفسه، ص 236.
[22]- المصدر نفسه، 237.
[23]- علي بن محمد السيد الشريف الجرجاني، التعريفات، تحقيق محمد الصديق المنشاوي، د.ط، 2004م، دار الفضيلة القاهرة، ص 216.
[24]- محمد عمارة، مخاطر العولمة على الهوية الثقافية، ط 1، 1999م، نهضة مصر، ص 6.
[25]- محمد الغزالي، خطب الشيخ الغزالي في شؤون الدين والحياة، إعداد قطب عبد الحميد قطب، د.ط، د.ت، دار الاعتصام القاهرة، ج1، ص108.
[26]- المصدر نفسه، ص 109.
[27]- المصدر نفسه، ص 109.
[28]- محمد الغزالي، خطب الشيخ الغزالي، ص 108- 109.
[29]- محمد الغزالي، الطريق من هنا، د ط، د ت، دار الشروق القاهرة، ص36.
[30]- المصدر نفسه، ص 34.
[31]- المصدر نفسه، ص 37، 38.
[32]- محمد الغزالي، من هنا الطريق، ص 44.
[33]- المصدر نفسه، ص44.
[34]- المصدر نفسه، ص43.
[35]- محمد الغزالي، الاستعمار أحقاد وأطماع، ط 4، 2005م، نهضة مصر، ص11- 12.
[36]- المصدر نفسه، ص 20.
[37]- المصدر نفسه، ص 251.
[38]- محمد الغزالي، الحق المر، ج6، ص 69.
[39]- محمد الغزالي، الاستعمار أطماع وأحقاد، ص 146، 148.
[40]- محمد الغزالي، هموم داعية، ط6، 2006م، نهضة مصر، ص 25.
[41]- محمد الغزالي، هموم داعية، ص 30.
[42]- محمد الغزالي، علل وأدوية، د ط، د ت، دار الشروق القاهرة، ص 171.
[43]- أنظر محمد الغزالي، الحق المر، ص 112.
[44]- محمد الغزالي، الحق المر، ص 113.
[45]- محمد الغزالي، علل وأدوية، ص 171.
[46]- محمد الغزالي، الحق المر، ص 93.
[47]- المصدر نفسه، ص 93.
[48]- محمد الغزالي، علل وأدوية، ص 148.
[49]- محمد الغزالي، الاستعمار أحقاد وأطماع، ص 243.
[50]- سر تأخر العرب والمسلمين ص 6.
[51]- المصدر نفسه، ص 16.

[52]- محمد الغزالي، خلق المسلم، 1408هـ، 1987م، دار الريان للتراث، ص 7.
[53]- المصدر نفسه، ص13.
[54]- المصدر نفسه، ص21.
[55]- المصدر نفسه، ص22.
[56]- محمد الغزالي، تأملات في الدين والحياة، ط4، 2005م، نهضة مصر، ص132.
[57]- محمد الغزالي، الحق المر، ص 12.
[58]- محمد الغزالي، الإسلام والاستبداد السياسي، ص31.
[59]- المصدر نفسه، ص 32.
[60]- محمد الغزالي، الإسلام والاستبداد السياسي، ص33.
[61]- محمد الغزالي، الطريق من هنا، د ط، د ت، دار الشروق القاهرة، ص 64.
[62]- المصدر نفسه، ص 65.
[63]- المصدر نسه، ص 66.
[64]- محمد الغزالي، الطريق من هنا، ص 22، 24.
[65]- محمد الغزالي، نظرات في القرآن، ص 200-201.
[66]- محمد الغزالي، الغزو الثقافي يمتد في فراغنا، ص 6.
[67]- محمد الغزالي، الغزو الثقافي يمتد في فراغنا، ص 118.
[68]- محمد الغزالي، سر تأخر العرب والمسلمين، ص 78.
[69]- محمد الغزالي، الغزو الثقافي يمتد في فراغنا، ص39.
[70]- محمد الغزالي، الحق المر، ص59.